

والضحى

هلت خديجة ممسكة بكوب من اللبن الكبير وكوباً آخر (علشان

التسقية):

- تسلمي يا حبيتي
- عاوزه حاجة تانية يا جدتي
- لا شكراً
- أنا هروح المطبخ أجهز حاجة انهارده
- ربنا يديكي العافية ويقعد لك في عيالك

كانت خديجة تُعد من بعد الفجر تجهيزات المطبخ لليوم وتقوم بتنظيف الأواني ومتعلقات المطبخ و (ترويق) البيت وغرفة نوم الجدة ولكن في حضورها وتُعد لها الإفطار بين العاشرة والحادية عشرة بعد أن تصلى ست البنات صلاة الضحى، وبعد أن تصلى السيدة فرض الظهر

أو قبله بقليل تعود خديجة إلى بيتها لتعد الغداء لأبنائها ولزوجها الذى يكون قد عاد من السوق ثم تعود مع صلاة العصر في أي وقت لإعداد وجبة غداء للسيدة بينما في وقت غياب خديجة عنها بين الظهر والعصر تكون السيدة قد نالت قسطاً من النوم (القيلولة).

في هذا اليوم بالذات (يوم ميلادها) وبينما أعدت لها خديجة الإفطار وقبل أن تتناول أول لقمة فإذا بصوت أجش ينادى (عمتووو) أدركت أنه صوت المهندس عبدالله عبدون والذي بمجرد دخوله من باب السور هرول سريعاً نحو ست البنات التي كانت تتناول إفطارها في (الفراندة) حتى ترى الشارع وتستأنس بالمارة حتى وإن كانت هي من أطلال الماضي وهم أبناء هذا الزمن الذى بالكاد تطيقه ويملؤها أمل اللقاء بالأحبة لكنها كانت على قدر من الإيمان مما جعلها تتفهم تماماً أن تقدم العمر بها إنما هو رزق وكانت على قدر كبير من الصبر والتحمل حيث احتملت سخافات لا يحتملها من هم في عمر أحفادها.

كانت تناوبها أفكار أبيها وتعتقد فيها تمام الاعتقاد، كان عطا الله محبوب يؤمن أن البيت حتى يكتمل سِتره لابد أن يكون أمامه فسيح من الخلاء من الأمام ومن الخلف، كان الرجل يستنكر شقق المدن فبمجرد دخولك من الباب وكأنك صرت من أهل البيت رغم أنك لست منهم، ربما كان ذلك تديناً أو عرفاً أو خصوصية نبعت مع الميلاد وتدفقت مع الدماء في الشرايين.

كانت فراندة بيت عطا الله تزيد مساحتها عن مائة متر لم يستجد عليها سوى الرخام الذى يحتل أرضيتها والدهان الذى يبدو على شاكلة دهان المساجد بما على حوائطها من زخارف رسمها محترف فإن رأيته لأول مرة ربما مسك رهبة من البيت وأصحابه.

كانت (الفراندة) شاهداً أصيلاً على الجلسات العرفية التي كانت تُعقد هنا وعلى (العزومات) حيث كان يجلس أهل البلد من القريين أما البهوات وكبار القوم كانوا يجلسون في غرفة الضيوف، الاثني عشرة (كنبة إسطنبولي) احتملت رجالاً ربما بالآلاف وتحملت صراخاً واحتدامات لا يتحملها بشر أثناء الجلسات العرفية.

أما الجنية فكانت ذات شأن في الماضي، تزينت بأشجار التوت والبرتقال وتكعيبية العنب وفواكه أخرى كانت تكفي متطلبات البيت إلى حين أما الخضروات الأساسية من كرنب وبازلاء وفجل وجرجير وشبت وكسبرة وبقدونس كانت تحقق للبيت الاكتفاء الكامل طوال العام تقريباً.

تغير الحال الآن ولم يبق في الجنية سوى شجيرات متفرقة تنطق بغدر الزمان وحل محل بعضها بعض أشجار الـ (فيكس) فتبقى على شيء من اللون الأخضر حتى لا تزول النعمة ولا يصيبهم مكروه.. هكذا ظنت.

حاولت أن تستأجر من يهتم خصيصاً بالجنية وخصصت لهم راتباً شهرياً لكن دون فائدة ملموسة لم يستطع أحدهم أن يعيد الجنية إلى سابق عهدها وكما كانت حتى أنها استقدمت أكثر من مهندس زراعي لكن بلا فائدة أيضاً، وبعد محاولات متكررة أيقنت أنه (مفيش فايدة) كان أمر الجنية يلهب قلبها بحزن كفراق أبيها ولم يريحها فقط إلا شجرة الرمان التي أمرت بقطعها واجتثاثها من الجذور، تلك الشجرة التي التقت عندها مصطفى علام في غفلة من أبيها وأخوتها، ولا زالت تذكر طرائف عن تلك الجنية فيوم أن وضعت (روج) كانت قد أهدته إليها ابنة أحد أصدقاء

أبيها من بهوات القاهرة يومها انتزع الرجل عرفاً صلباً من شجرة الصفصاف ولقّن جسدها درساً للعمر ولم يعبأ بأن الضرب في الليل مكروه، والحلاق أبو نصير الذي كان يهوى أن يأتي على فترات فينتزع ثلاث برتقالات ويذهب ليخبر عطا الله أنه استغفلهم وظفر بالبرتقالات ورغم أن عطا الله كان قد أعطاه رخصة أن يأخذ ما يشاء كيفما يشاء ووقتها يشاء إلا أن الرجل كان يشبع رغبته في استغفالهم كان يرى في ذلك انتصاراً.

كم يحتاج الفرع أن يستأنس بالأصل والجذور، كان عبدالله يعمل مهندساً في قطاع البترول يذهب للعمل أسبوعين و أجازته أيضاً تمتد لأسبوعين وكان من عاداته أن يطل على عمته على الأقل ثلاث مرات في الأجازة مصطحباً معه زوجته إيمان وابنتيه شروق وسلمى وآخر العنقود التي رُزق بها منذ عام (جويرية)، كان أبو البنات حريصاً على ود ست البنات.

كانت رقية على درجة من العقل والنضج بحيث لم تصطدم (طوال بقائها في بيت البلد) بالعمة إلا نادراً وكانت تدرك تماماً أن العمة لا تقبل أن ينتصر عليها أحد حتى في أبسط الأمور فطاب عيشها واستقرت عيشتها في البيت.

هذه المرة لم تأت سلمى معهم لأنها لا تستطيع أن تتغيب حصة واحدة من حصص الفيزياء لأن الأستاذ (المستر) يعنف من يتغيب، كم كان ذلك الأستاذ عبوساً كבעب الفيزياء الزائف وجافاً كأرض (شراقي) تشتا إلى قطرة ماء.

- فين سلمى يا عبدالله.. فين البت يا رقية
- معلش يا عمتي دروس بقى أنتي عارفة وعموماً هتشوفها بالليل
- إن شاء الله
- ربنا ينجح مقاصدها

وكان عبدالله من الذكاء أن يأتي إلى عمته في وقت طعام فيؤنسها ويجبر
بخاطرهما ولم يدخل عليها مرة إلا وهو يحمل أغراضاً، كانت تستلذ بحبات
الجلي كولا التي كانت يجلبها إليها.

- يا خديجه زودي الأكل

- حاضر يا جدتي

التفوا جميعاً رقية وعبدالله وإيمان وشروق وجويرية على رجل العمّة،
وسارع عبدالله إلى التهام الجبنة الفلاحي والعسل الأبيض بينما استرسلت
خريجة الاقتصاد والعلوم السياسية في أكل ملاعق الزبادي الطبيعي واللبن.
ذات يوم وعلى غير العادة استيقظت ست البنات من قيلولتها على
صوت رقية وصيحاتها، وشيء من (الرده) وكثير من سلاطة لسان
فاطمة، كان عماد يقلّد أحد أفلام السبعينيات فضرب ابن عمه (عبدالله)
على رأسه فشُجّت وانسال الدم من رأسه مما استلزم ثلاث غرز عند طبيب
المدينة د / جرجس.

لقد امتركوا تليفزيوناً منذ مطلع السبعينيات

لم يُذكر أن رقية قد هاجت كهياجها تلك المرة أو عَنَّت أحداً أو
اشتكى منها أحد من قبل، كانت رزانتها تعطيها القدرة على حسن التصرف
تبتسم حينما يشتد غضبها وتكتم غيظها بين ضلوعها إن اغتازت حتى أن
بعض النسوة ممن كانت لهم (خلطة) ببيت عطا الله كانوا يرونها (كهينة).
كان حبل ودها مع فُتنة ممتد ولم يكن لديها وصال مع فاطمة إلا من (
كلمة ورد غطاها) فأراحت بذلك نفسها واستراحت.

طابت الأيام لرقية زوجة المرحوم عبدون وابنها عبدالله في بيت البلد،
وكان الولد منذ صغره يلعب دور المنسق بين ابني عمه ربما لأنه كان
أوسطهما، وربما أورثه أبوه تلك الوسطية وربما تشبّع بها من حليب (
الكهينة).

كان قليل المذاكرة لكنه كان لماحاً ألمعياً اختار شعبة الرياضيات في
الثانوية العامة ودخل كلية الهندسة بمجهود متوسط في المذاكرة، كانت
(ست البنات) تريده طبيباً كابن عمه ظناً منها أن الأطباء في فلك لا يسبح
غيرهم فيه ولا عجب فللمجتمعات أفكار توارثتها الأجيال وصارت
عقائد لا تقبل المناقشة.

ومن قدرات سيف عطا الله أنه كان لا يُستل إلا إذا لزم الأمر فإن راجع نفسه فأدرك خطأ ما فليُعاد السيف إلى غمده.

أفهمها عبدالله ماذا تعنى كليه الهندسة وقيمتها غير أنه لن يتعد كابن عمه فقد كانت جامعة الزقازيق قد افتتحت قبل سنوات قليلة وسوف يلتحق بها وأطلعها على أحلامه في السفر واكتشاف آبار البترول وكيف أنه بذلك يساهم في خدمة الوطن، فأرضاها بذلك واطمأن قلبها.

لم يغادر عبدالله وأمه بيت البلد حتى زواج عبدالله من إيمان التي كانت تعمل في روضة للأطفال غير أنه اشترط عليها أن تترك العمل لأجل المصلحة الأكبر (البيت) فوافقت ببساطة عن اقتناع إلا أنه لم يقف أمام رغبتها في العيش في المدينة بل رآه حقاً من حقوقها واستأجر شقة معقولة وبقيت رقية مع ست البنات في بيت البلد لمدة عام حتى إن صارت إيمان في شهر حملها السابع رأى عبدالله ضرورة استقدام أمه للعيش معه من باب الاستئناس بها وأن تكون صمام أمان لزوجته والسبب الأقوى أنه كان لا يجب أن تذهب زوجته إلى بيت أبيها في أيام غيابه عن البيت.

لقد كان يوماً من الأيام الصعبة على سيف عطا الله، فالأولى التي غادرت قد ألفت من خلفها عشرات الأزيار، ولكن هذه المرة أحست بوجع الفراق لكن المصلحة العامة تقتضى ذلك وعلى من اختارته الظروف أن يتقدم الصفوف أن يعلو بمصلحة الآخرين فوق مصلحته الشخصية ولو على حساب راحته واكتمال طمأنينته.

كانت (حنة) عبدالله فرحاً حقيقياً لأنه اشترط على صهره أن يسافر يوم الفرح إلى أسوان لقضاء (شهر العسل) حيث كان زفافه في يناير فأقام ليلة حنّاء لم تشهدها القرية ولا حتى المدينة، عجلين كاملين أصرّ أن يدفع ثمن أحدهما والعجل الثالث وهبته ست البنات بالكامل لفقراء الله.

استقدم فريقاً غنائياً من المنصورة وفرقة للفنون الشعبية من الزقازيق وأقام صواناً مكون من ٦٠ قطعة قماش كسقف ورص نحو ٢٠٠٠ كرسي خشبي ورغم هذا تراحم الشباب في الأرض الفضاء أمام الصوان ، وحرص عبدالله أن يُحضر لمعاذيم صهره سيارات تنقلهم وتعيدهم بعد انتهاء حفل الزفاف في ليلة الحنّاء.

عاش عبدالله وإيمان ثم لحقت بهم رقية حياة هادئة يحكمها العقل وجبر الخاطر، وهب الله له شروق ثم سلمى وبعد سنوات آخر العنقود (جويرية).

حينما انتهى الدكتور عماد من بناء البرج وعلم المهندس عبدالله بل وشاهد أدواره وكيف قسّمه وأين يقع دوره وكيف فصل ابن عمه بين مستشفى ودوري أبنائه وبين دوري ابني عمه لم ينزعج لكن إيمان كان لها تعقيب واستنفاص لنواياهم لكنه رأى أن الأمر لا يستحق فساكني الأبراج لا يهتمون إلا بالأسانسير فالدرج إن قُفل عليهم أو ظل مفتوحاً فلا قيمة لذلك، كما أن ابن عمه قد تكلف كثيراً في بناء هذا البرج وفي نهاية الأمر فهو يمتلك ثلث الأرض كوريث شرعي.

حينما ذهب للعيش في البرج كان قد قسّم الدور على شقتين الأولى عاش فيها والثانية لوالدته بكامل إرادتها بل وبإصرار غير أنها اشترطت وبمنتهى اللطف أن تبني معها شروق وسلمى (طبعاً يا تيته):

ربنا ما يحرمني منكم يا حبايبي ولا يحرمكوا من أبوكم وأمكم وأختكم يا نني عين تيته.

ولا بأس في الأجازات أن يجتمعن جميعاً في شقة واحدة على الأقل
وقت النوم أما شروق وسلمى فاستتبت لهما الحياة في شقه (تيته) وتقريباً
قاما بنقل جميع أغراضهما عندها وأطلقت شروق خريجة الاقتصاد والعلوم
السياسية على شقه تيته (حزب تيته) :

وليحيا حزب تيته وليعيش يا يعيش يا يعيش يا يعيش .

ولأن العقل هو التاج الأعظم على رأس البشر وقمة الزينة ومنتهاها
فاطمأن قلب أبو البنات إلى خلفته وإن سأله صديق لم يره منذ فترة عن عدد
أولاده فكان يجيب :

- عندي ٣ بنات وأبو البنات سكر نبات... هكذا أخبرته أمه .

حينما كان يتم اختياره في كل ترقية في سن أصغر عن سبقوه في المكان
فيدرك أن هذا هو رزق البنات وحين نجّاه الله حين سقط من أعلى (البريمة)
فتيقن أن هذا لأجل البنات وحينما عملت ابنته (البكرية) في جامعة الدول
العربية أهدها قلبه إلى أن البنات هم الأصل وطين الحياة... أبو البنات سكر
نبات .

وأصاب سهم العقل والتدبير شروق التي كان أمامها فرصتين ذهبيتين باعتبارها (نمبر وان) على دفعتهما في الاقتصاد والعلوم السياسية، الفرصة الأولى هي الانضمام إلى سلك الخارجية والثانية هي العمل بجامعة الدول العربية فرأت أنها كـ (بنوته) ستصبح يوماً ما حتى وإن بُعد زوجة وأماً وعليه فلا يجب أن يطغى طموحها على أسرتها والحفاظ على كيانها وبالتالي فإن العمل بالخارجية يحتمل التنقل هنا وهناك فقبلت العمل في جامعة الدول العربية واستقرت أيام العمل عند خالتها التي صارت أرملة منذ عامين في رفقة بنات خالتها التوأمتين اللتين يصغرانها بأربعة أعوام وابن خالتها الذي لا زال بالمرحلة الابتدائية.

لا زالوا جميعاً على مائدة إفطار العمة ولا زالت شروق تدندن في كوب اللبن وتسترسل في طرف المعلقة بعد أن تغمسه في طبق الزبادي:

- ما بتاكلش ليه يا بت يا شروق
- رجيم يا تيته هيرفدوني من الجامعة لو تخت
- شوفت البت الأروبة.... يضحكون

انتهى الجميع من إفطارهم فأمرت ست البنات خديجة بإحضار السبرتاية، همت شروق لمساعدة خديجة في لم الأطباق فهذا مما علمتها رقية، (الي يحب حد يلّم أكله معاه) ذهبت رقية وعلى ذراعها جويرية إلى غرفتها القديمة وتبعته إيمان وشروق بعد مساعدة خديجة، جلس ثلاثهم وأخذت رقية كما اعتادت في قص حكايات وروايات عن كل شبر في غرفتها القديمة حكايات مع المرحوم وأثاث غرفتها الذي مضى عليه أكثر من نصف قرن ولا زال (بشوكه)، عن دراجة عبدالله التي حطمها عماد لأنه لم يكن يمتلك مثلها رغم أنها كانت من نقودها الخاصة حيث كافأته بها حينما نجح في الشهادة الابتدائية ولامتها وقتها (ست البنات) واضطرت لشراء دراجتين (واحدة لعماد والأخرى لفاروق) مثلها تماماً وميزت كل واحدة بزينة كان يضعها الأطفال على مقبض الدراجة وراعت بالطبع اختلاف ألوانها، ناهيك عن حكاياتها التي لا تنقطع عن عبدون وبعد أن تتحدث إلى صورته ذات البرواز الخشبي الفاخر (طراز الستينيات) ينزرف الدمع من مقلتيها مصاحباً بابتسامة الفخر كزوجه شهيد (أحياء عن ربهم يرزقون).

- السبرتايه يا جدتي حاجه تانية... لا شكراً يا نور عيني

ومما ورثته ست البنات عن أبيها إدمان القهوة فاليوم لا يبدأ إلا بعد أول فنجان ويستمر احتسائها بالمرات ومرات طول اليوم، كان هذا في السابق بالطبع لكنها منذ سنوات وبعد أن هدهدها الطبيب خوفاً على شرايين قلبها صمدت أمام لذة القهوة واكتفت بتناول فنجان الصباح الممتلئ نصفه أو أقل ولكن ما لم تمتنع عنه هو إشعال (السبرتايه) للضيوف كان في ذلك إشباعاً لرغبات حرمتها منها الشيخوخة.

عبدالله ورث عن جده عطا الله ومن ثم عمته عادة القهوة لكنه كان دقيقاً في معيار سكرها (مضبوط) وفي عدد مرات تناولها يشرب ثلاث مرات فناجين صغيرة الأول بعد الإفطار في الصباح والثاني في الظهرية والأخير قبل السابعة تجنباً لحدوث أرق حيث أنه كان ينام في العاشرة مساءً.

تناولت نصف فنجانها وعبدالله تناول فنجانه حدثته عن اليوم (حيث

ذكرى ميلادها المائة):

- أما أنتويا ولاد ليكوا حركات.

- صباح الخير يا ست الناس

لم يشعرا بالقادم إلا بعد إلقاءه التحية، شهق الرجل شهقة المشتاق:

- ازيك يا باشمهندس
- واحشنى يا شُهدي وهاتك يا أحضان
- اقعد يا شُهدي... تسلمي يا ست الناس

كان شُهدي في نفس المقعد مع عبدالله في الابتدائية لكنه هجر المدرسة فقد كان بليداً بمعنى الكلمة وانصرف إلى مساعدة والده في زراعة الفدان الذى كان يمتلكه وكان له أختان لم يتعلما من الأساس فاستطاع أن يساند والده حتى زوجها وزاد مساحة الأرض بكده وعرقه إلى فدانين وتزوج بعد الثلاثين ورُزق بثلاثة من البنين أكبرهم مدرس ابتدائي وأوسطهم مهندس بترول كان عبدالله السبب في تعيينه بأمر من العمة ولأجل عشرة الدكة القديمة وأصغرهم صيدلي تجاور صيدليته بيت عطا الله، كان الدكتور هشام شُهدي من سلسال طيب فكان يطلُّ على الحاجة بشكل يومي وقت العصاري يتناول معها كوباً من الشاي ويستريح قليلاً من (دوشة) الصيدلية ويتابع ضغطها وسكرها إن استدعى الأمر.

المهندس عبدالله كان ودوداً ولكن حسب الظروف فلا يحرص على الاتصال بأصدقاء الماضي ولكنه إن رأى واحداً منهم فيلقاه بترحاب يبعد الشك عنه في كونه ليس أصيلاً وناكراً لأهله وذويه ، كان سبباً مباشراً في تعيين خمسة من أبناء القرية في قطاع البترول بأوامر من ست البنات.

استعداداً قليلاً من الذكريات فُشهدي على عجلة من أمره جاء فقط ليخبر (ست الحاجة) أنه انتوى زراعة خمسة أفدنة كاملة خضراوات:

- مكسبها إيه يا ست الحاجة.... نار نار

- قول بإذن الله يا شهدي

- كله بأمر الله يا ست الحاجة

ذلك إلى جانب المحصول الرئيسي في باقي الأفدنة، كانت ثقتها في شُهدي بلا حدود وكان هو أهلاً لهذه الثقة فالأرض في حوزته منذ عشرين عاماً فازداد الخير على يديه ربما عوّضه الله عن بلادة المدارس بعبقرية الطين بل قل أنه من صار من ظهره معلماً ومهندساً وصيدلانياً لا بد وأن مطعمه حلال وقلبه سليم وليس بليداً كما كانوا يدعون.. هكذا رأت ست البنات.

استأذن شهدي وعاود عناق الباشمهندس عبدالله

هلت شروق وأمها وجدتها رقية واستعجلا المهندس عبدالله حتى
ينهوا مشاغلهم ويستعدوا للاحتفال ليلاً بست البنات، وكما كان اللقاء
حاراً كان الوداع، قبلوا جميعاً تلك اليدين البارزة عروقتها، واستقلوا السيارة
وغادروا.

أتت خديجة على عجل لأخذ (عدة القهوة) وسألت إن كانت الجدة
تحتاج شيئاً؟

- شكراً يا حبيبتي خدى بإيدي بس أتوضى علشان أصلى الظهر

- من عنيا يا جدتي

اتكأت ست البنات على عكازها ذو المقبض الفضة وأمسكت بيدها
الأخرى يد خديجة التي انتظرتها حتى توضأت وأدخلتها غرفتها فاستلقت
لدقائق قبل صلاة الظهر ثم أتمت الفرض ونادت على خديجة واطمأنت على
أحوال البيت وأكدت عليها إحكام غلق الأبواب والنوافذ وأنبوبة
البوتاجاز قبل أن تذهب إلى بيتها ومعاودتها مرة أخرى بعد العصر،

واستلقت السيدة على سريرها ووضعت رأسها على المخدتين وسكن جسدها وصفت روحها وذهبت في رحلة القيلولة.

ذات مرة تعرض السور المحيط ببيت عطا الله للاصطدام بسيارة نقل كبيرة فسارع عطا الله محجوب بسبب السائق وحاول الاعتداء عليه إلا أنه قد فرّ مغادراً مسرعاً ليبدو السور وقد مال ميلاً شديداً فاستجمع عافيته وسنده بكتفه لدقائق ولم يحتمل فهرع إليه الثلاثة طاهر وعبدون وفؤاد وتناوبوا على سند الجدار المائل كي يستعدلوه ويستقيم من جديد، فأجهدوا ولم يحتملوا إلا دقائق، فأشارت إليهم ست البنات بالابتعاد فأطاعوا سيف عطا الله فسندت الجدار بظهرها لا بكتفها كما فعلوا من قبلها، مر وقت أطول وأحست بالآلام شديدة تأملت وانتظرت أن يناوبها أحد في المساعدة إلا أنهم قد اختفوا جميعاً أحست بـ (طقطقة) في عمودها الفقري ولا أحد حولها فكرت في الابتعاد لكنها خشيت أن يسقط السور فتألام من أبيها أو أحد إخوانها الذكور، وظلت الفقرات تتهشم فقرة تلو الأخرى حتى وصلوا إلى أربعة فقرات، هنا لاح أبيها في الأفق القريب فابتسمت أملاً في استعادة عافيتها التي قاربت على الفناء ففي أبيها الخير والبركة والإنقاذ فما كان من

عطا الله محبوب إلا أن أخرج ساعته (الكاتينه المعترية) ورفع لها حاجباً
وردد على مسمعها:

- (لسه بدرى يا ست البنات).

نهضت ست البنات من قيلولتها بتأنن واستعاذت بالله من الشيطان،
لقد كان كابوساً في وضوح النهار، ولا غرابة في ذلك فهي تعلم أنها وبرغم
وصولها إلى نادى المائة إلا أن صفاتها العجيبة التي مُنيت بها في الصغر لا
زالت تلازمها حتى بعد أن صارت مئوية العمر ومن تلك الصفات
والملاحم أن معظم أحلامها أو تحديداً كوابيسها كانت نهاراً لا بالليل، دقائق
وصارت هادئة وعادت قيلولتها.

عادت خديجة اليوم مبكراً قبل صلاة العصر بنصف ساعة، فتحت
الباب بالمفتاح الذى لا تأخذه إلا في هذا الوقت وأيقظت السيدة وساعدها
في تبديل ملابسها، كانت خديجة تلاحظ دائماً أن السيدة تعرق بشدة حتى في
الشتاء :

- أملح يا بنتي ربنا يكفيكي الشر



- ألف سلامة عليكي يا جدتي

- تسلمي يا حبيبتني

استعدت وأدت فرض العصر وجلست في الصالة (الوسطانية) التي
تطل عليها الغرف الثلاث واتكأت على عكاظها وطلبت من خديجة ككل
يوم أن تأتيها بهاء فاتر به بعض الملح كي تغمس قدميها فيه كانت تجد في
ذلك دواء لها وراحة نفسية ولكنها طلبت منها أن تأتي بـ (الطشت) في
غرفة المرحوم فؤاد - حاضر يا جدتي.

كانت فُتنة أقل النساء الثلاثة في امكانات المرأة المتزوجة (ست البيت
(فهي لا تجيد فن الطبخ و ترتيب البيت أو الغرفة بسرعة لأنها كانت لا
تطبق ذلك، ما كان يمتعها ويثلج صدرها هو أن تجلس بجوار ست البنات
فتستمع إلى حكاياتها ويظل ثغرها مبتسماً حتى وإن سمعت منها مبكيات
المبكيات.

مثل تلك المرأة لا تروق دائماً للرجال الذين ينتظرون منها (قمصة)
 كي يثبتوا قدرتهم على الإقناع أو عناد حتى ينفذوا أوامرهم رغماً عن أنفها
 فيثبت لهم وللآخرين أنهم النموذج الحى لإعلاء راية القوامة، لكن على
 العكس حيث كان فؤاد أسعد الناس بها فهى الوحيدة التي تناديه بـ (سي
 فؤاد)، ولما كان في طفولته مدلاً وصار كذلك حتى بعد أن أدرك ريعان
 الشباب فلهذا وجد فيها المنال والمنى فهى لا تسأله أين تذهب؟ ولماذا
 تأخرت؟ وبالطبع لن تسأله عن التزام من التزامات الحياة لأن العمة
 وتحديدًا مع فؤاد كانت هى المسؤولة من الألف إلى الياء.

كانت ست البنات ترى أن فُتنة (طيبة تمشى على الأرض) فلا بأس
 إذن أن تصاب بنقص في طهى الطعام أو ترتيب البيت أو عدم إجادتها
 لصنع فنجان قهوة على عكس فاطمة التي كانت تجيد فن القهوة فكان
 الفنجان وإن اقترب من (الشفطة الأخيرة) فلا زالت آثار (وش) القهوة
 موجودة :

- (الحلو ميكملش والوحش ماييسلمش)

بعد آدائها لفرض العصر خرجت لحالها إلى (الفراندة) فهذا هو الوقت الثابت بالنسبة لها لتتبع الناس في الشارع الذي استجدت عليه أشياء كثيرة في تلك القرية التي لم تفارقها السيدة طوال مائة عام، جلست إلى مقعد من سعف النخيل (الجريد) ومن تحتها (شلثة) ومدت قدميها إلى كرسي آخر حيث أن تقدم العمر قد يجعل الأرض لا تحتمل قدمي تلك العجوز ربما لأن الماضي يبدو ثقلاً على كاهل البشر والتراب.

أُصيبَت السيدة في الأعوام الأخيرة بتحديد حجم البصر فتحدت إقامتها كانت الأرض أمامها في الجهة البحرية حتى عام ١٩٨٥ خاوية تماماً فقد كانت أرضاً زراعية تعج من بعد الفجر بفتيات (الشتل) ونهاراً بالحيوانات والدواب وطول اليوم بقهقهات الفلاحين على جسر التربة التي تحد الأرض من الخلف.

وبعد ذاك التاريخ عُرست أول حربة في خاصرة الأرض وبنى أول بيت فيها كمناخضة لأول صوت رُفع للمطالبة بما أقرته الشريعة... الميراث. حين كان تختلى إلى حالها كانت تلوم نفسها وتؤنبها حيث أنها ومن قبلها عطا الله محبوب ورغم ما كان لهما من نفوذ لم يستطيعا إيقاف ذاك

الجرم والعرف الأعوج في القرية، حيث كان أهلها وعلى غير طبيعة من حولهم من قرى بل على غير ما أتت به الشريعة السمحاء كانوا لا يورثون البنات إلا من رحم ربك، صارت عادة وظنوا أنها من العبادة وآه لو يعرفون كم كان ذلك إثماً عظيماً لكن من المؤكد أنهم قد عرفوا وتيقنوا حينما صاروا من ساكني القبور.

كانت تلك الأفدنة الخمسة التي تواجه بيت عطا الله خمسة من الأشقاء ثلاثة بنات وذكرين أولهما الأستاذ نجيب الذي يعمل معلماً في البندر بشهادة الابتدائية التي حصل عليها والثاني هو صديق الذي كانت الأرض تحت يديه، يأتي في نهاية العام ويلقى لأخيه بالفتات والآخر لا حول له ولا قوة أمام سيطرة أخيه وربما لأن راتبه كموظف كان (غانيه ومكفيه ..ربها.

استطاع صديق في السبعينيات أن يحصل على عقد إيجار للأرض كلها من أخيه أما البنات ومن قبل ذلك فلقد جمعهم في ذات يوم معاً دون أزواجهن وقامت زوجته (القرشانه) بذبح دكرين بط وثلاث عتافي فامتلأت بطونهن ولما حبسوا بالشاي تساقطت دموع صديق في كوبه (الذي

أمسكه بيسراه) من فرط المعاناة التي يتكبدنها في المعيشة وأن المسؤولية ثقيلة على كاهله وأنه إن نازعه أزواج البنات (على حد تعبيره) في أرض أبيه فهو يخشى ألا يقدر على ودهم والالتزام في إرسال (المواسم) لهن بانتظام وترحم الرجل على والده الذي قد حصل منه على أوراق رسمية ببيع الأرض فقد قام بتبصيمه أثناء مرضه الأخير، لقد خدع صديق الرجل وأثقل ميزان سيئاته وهو رقيد بلا حول ولا قوة في فراش المرض لكن الله مطّلع على عبادته من فوق السموات السبع وهو أرحم الراحمين.

ظل صديق متستراً على فعلته وأبقى الأوراق معه كآخر كارت يلتقى به على (الترابيزة) ولكن كثرة (وحوحته) لأخيه ورقة قلب البنات كانتا كافيتين لأن يصل إلى مقصده ومبتغاه، فنصيب البنات صار ملكه بذكرين بط وثلاث عتاقى ونصيب أخيه صار ملكه نظير عقد بنظام الإيجار القديم وبدفع ملاليم له ولأبنائه من بعده ولا بأس من زيارة كل عام حتى يبدو صاحب شهامة ومروءة وواصل لرحمه أمام الناس.

صار يمتلك رسمياً حوالي ٨٥ قيراط من أصل ١٢٠ قيراط والفرق للأستاذ نجيب وبمضي الأيام تناسى صديق مواسم البنات بل وزيارتهم من الأساس.. ربنا يعينه صاحب عيال.

في عام ١٩٨٥ كان أحد من أبناء البنات قد صار محامياً وتيقن من جبروت خاله على أمه وخاله وخالاته ورغم أن العرف السائد وقتها في القرية (شفت البنات) إلا ان الأفوكاتو فتح الموضوع مع خاله فلم يلتق منه إلا الشتيمة وقلة القيمة فسارع برفع قضية بعد عناء في إقناع والدته وخالاته يتهمه فيها بالتدليس والإكراه، وعلى الجانب الآخر استعان خاله بمحامي مما أبتليت بهم البلاد الذين يلعبون بالبيضة والحجر فأشار على صديق ببناء بيت وسط الأرض على أكثر من دور (وأهو يبقى للعيال) وهنا أخذ المحامي العقد القديم وقد كان رسمياً موثقاً في الشهر العقاري وضمه لأوراق القضية وإن حدث وشككوا فيه فليأتوا بالمرحوم لمطابقة بصمته.. أعوام وحُسمت القضية لصالح البيضة والحجر.

وحتى تكتمل وتزهو لصديق فقد اشترى من أبناء أخيه أرضهم بعد موت الأستاذ نجيب بثلاث الثمن (الجار أولى بالشفعة ربنا يرحمك يا أخويا ودموعه تتساقط في كوب الشاي)

ناهيك أن نصف الأرض لم يُحتسب من الأساس وفق العرف السائد الذى استمد قوته من قانون الإيجار القديم وعليه فلقد ابتلع صديق نصف الأرض الأخرى بثلاث الثمن (حار ونار في جتته).

سنوات تمر ولاقى صديق ما هو أمر فقد سقط مريضاً وظل رقيداً لأكثر من عشر سنوات ماتت زوجته فلم يتلق العزاء فيها، زوج ولديه الوحيدين ولم يحضر فرحهما لقد كانا كأبيهم من مرضى القلوب وأصحاب نواقص في النفس التي فطرت على الخير فلقد كان الشبان من هواة اللهو دائماً والعريضة أحياناً من سافر منها إلى الخليج عاد كـ (خبيثها) ومن فتح مقهى قد صار غرزة، واضطر ولدى صديق في سنوات مرض أبيهم أن يبيعا الأرض كاملة بعد أن قاما بتبصيمه هو الآخر وهو راقد في فراشه، وسبحان مغير الأحوال ومقلب الأمور فقد اشترى معظم أبناء عماتها معظم الأرض والقليل الباقي اشتراه نفر من أهل القرية، وما إن بيعت آخر حبة طين في

الأرض لم يمض سوى شهرين ومات صديق وشهر آخر وباع الشابان البيت ورحلا بلا رجعة.

أدركت ست البنات أن السيف حينما يوجه إلى اتجاه فهو حتماً يغفل اتجاهات أخرى فكيف لسيف عطا الله الذي رهبه الناس أن يغفل عن ظلم كهذا ربما لأن أحداً من بنات القرية لم تشتك يوماً وصار استسلامهن إدماناً.

- الشاي يا جدي

- مشوفتيش الأستاذ عبد الحليم يا خديجة؟

- لا والله يا جدي مشوفتوش من آخر مرة كان هنا

- يجعله خير إن شاء الله

عبد الحليم يعمل موظفاً بالضرائب العامة هو ابن إحدى شقيقات صديق أحد الذين اشتروا جزءاً من أملاك أمه وخالاته التي اغتصبها المرحوم بذكرين بط وثلاث عتافي سافر إلى العراق ثلاث سنوات كان (مُرزقاً بصحيح) عاد إلى الوطن حينما آتاه جواب القوى العاملة أنفق كل ما

أتى به في شراء فدان ونصف من أبناء خاله وبني بيتاً هو الآخر وأتى بأمه معه بعد أن تزوج وصار (مأمور ضرائب قد الدنيا).

كان حريصاً لكنه لم يكن بخيلاً حافظ على أرضه التي صارت الآن جميعها (أرض مباني) تقترب قيمتها من عشرة ملايين جنيهاً، ورغم أن القرية بأكملها اكتظت بالمباني إلا أن أرض عبدالحليم كانت هي المنفذ الوحيد في القرية حتى أنه كان يسمح لمن أراد أن يقيم فيها مأتماً أو فرحاً دون مقابل.

كان حريصاً على تعليم أبنائه على أكمل ما يكون وفي أحسن شكل، كان من أوائل الذين دفعوا بأبنائهم إلى التعليم الخاص لإدراك ووعى منه أن عدم اللحاق بكليات القمه بفارق بسيط لا يعنى أبداً أن الولد أو البنت لن يصبحوا متفوقين إن لحقوا بركب التعليم الخاص بل أدرك أن العكس هو الصحيح، وبالفعل باع قيراطين فقط لأجل الولد والبنت وقد صارا الآن طبيب علاج طبيعي مميز وطبيبة أسنان قد الدنيا.

رغم أنه الوحيد في أبناء عمه الذى احتفظ بأصدقائه (شلته) دون أن يستثنى منهم أحداً إلا أن فاروق فؤاد كان كظل لعبدالحليم وكان عبدالحليم صمام الأمان لفاروق، رغم أن كليهما على النقيض تماماً ف عبودة (عبدالحليم) كان ذكياً وسريع البديهة ويُحسن النظر إلى المستقبل أما فاروق فقد كان يرمى حموله تماماً على الله لم يكن متواكلاً لكنه كان بطيئاً في السعي، ربما كانت طبيته التي ارتوى بها من حليب فُتنة جعلته هكذا.

لم ينقطعاً أبداً في وصالهما (عبدالحليم وفاروق) حتى أنه بمجرد وصول ابنى عبدالحليم المرحلة الثانوية كان فاروق هو المسئول عنهما في شئون الدروس الخصوصية ومتابعتهم حتى أنه إن صار هناك فاصلاً كبيراً بين موعد درس وآخر كانا ينتظران في شقة (عمو فاروق).

كان فاروق إخلاصاً يمشى على الأرض لم يتنصل يوماً من أحد كان قريباً منه في الصغر ولم يُبدل في سجل علاقاته القوية حسب مجريات الزمن كما يفعل البعض فماذا ترى في معلم كان من صفوة أصدقائه حلاقه الأمين ! كان سلامة أبونصير حلاقاً بدرجة مثقف رغم حصوله فقط على الشهادة الابتدائية وترك المدرسة في الصف الأول الإعدادي فلم يكن

التعليم سهل الهضم على قلبه ولم يكن المعلمون الذين صادفهم يروقون له
فلقد كانوا أسوداً في الفصل وكالحمل الوديع حينما يأتون إلى الدكان طمعاً
في حلاقة مجاناً خاصة الأستاذ محمدي مدرس الرياضيات الذى كانت
حلاقته تستغرق وقتاً أطول من الحلاقة لثلاث زبائن فقد كان الرجل يهوى
(نتف اللحية) شعرة شعرة وعلى (أقل من مهلك يا سلامة يا حبيبي)
وبعد الانتهاء كان يستحم بزجاجة الكولونيا الخمس خمسات حتى أن
سلامة كان يخفيها عنه إذا استطاع ذلك.

ما جمع بين فاروق وسلامة ربما أن كليهما لديه (فكر) وربما امتزج
صفاء قلبيهما وقد يكون لقرب أبو نصير من قلب الجد دوراً في ذاك الرباط
والمودة والقرب الذى جمع بينهما.

كان سلامة فصيح اللسان وساعدته المهنة أن يُجيد ويجود فإن آتاه زبوناً
مثل فاروق أنصت إليه وسأل واستفسر حتى صار يدرك أموراً كثيرة من
الصعب أن يدركها حلاق مثله وإن آتاه زبوناً كالغالية ممن يعيشون حياتهم
ليجنوا المال فيطعمون أولادهم وذويهم ولا يهتمون بأي شيء آخر فإنه هنا
يجد فيه تربة خصبة لتطبيق ما تعلمه واستوعبه.. وهاتك يا كلام.

بعد موت أبو نصير أغلق سلامة محل البلد واستأجر دكاناً في المدينة وصار يذهب من وقت الضحى ويعود إلى البلد في وقت متأخر من الليل ولما صارت له علاقات قوية في الشارع الذي يوجد به محل عمله فلقد كان من السهل عليه أن يجد شقة لصديقه الأستاذ فاروق بعد أن قرر الذهاب إلى هناك.

بعد أن تلقت ست البنات صدمة فراق رقية وابنها عبدالله تعودت شيء ما على البعاد واستطعمت فكرة النهايات القريبة، ورغم أن ابتعاد فاطمة والدكتور طاهر لم يزعجها بل جاء برداً وسلاماً على قلبها، إلا أنك إن اعتدت رؤية شرح في البرواز فلن ترتاح عينك إن رأته بعد سنين طويلة وقد تم إصلاحه، وظهر ذلك بعد فراق الثانية وابنها أما الأخيرة فلقد حان فراقها بعد شيء من التعود والاعتیاد.

كانت طبيعة عمل فاروق كمعلم لغة العربية في مدرسة البنات الثانوية في المدينة وبداية انشباكه في الدروس الخصوصية التي لم يحبها يوماً ولكن (أكل العيش) كان الدافع وراء مغادرة بيت البلد، الرجل يحرص على الذهاب للمدرسة بانتظام ويخرج منها في المواعيد المحددة ، لم يراوغ يوماً

من أجل الغياب أو لأن (يخلع بدري بدري) أو حتى أن (يلقم) جناب مدير المدرسة مبلغاً نظير أن يتفرغ للدروس الخصوصية فلقد كانت تلك الدروس بالنسبة له وسيلة تساعد على تلبية احتياجات أسرته التي زادت أعباؤها وحتى يطمأن قلبه فلم يعط درساً لطلابه في الفصل لأنه اعتبر ذلك تدليساً وبالتالي لم يحظ بدروس للصيفين الأول والثاني وتفرغ للصيف الثالث لأنهم (كده كده مايروحوش المدرسة).

لما غادر وأسرته الصغيرة تاركاً بيت البلد كان قد استأجر شقة في دور أرضى بناء على رغبة أمه (فتنة) كشرط للذهاب معه فهي لا تحب الأدوار العليا ولا تستطيع أن تعيش دون أن ترى الشارع ومن ذهب ومن راح. استأجر بعدها جراح بجوار الشقة كي يعطى فيه دروساً خصوصية فلقد كان من المعارضين لدروس المنازل ليس من باب (الشاي والكيك) وإنما رأى أن طالب العلم لابد أن يسعى إليه وليس العكس حتى إن كانت دروس خصوصية.

كانت مواعيده لا تتعدى خمسة مواعيد يومياً المجموعة عددها عشر طلاب تقريباً ويدفعون بالسعر العادي رغم أن غيره قد اكتظت غرفته بأكثر من ١٢٠ طالب لم يكن فاروق أفلاطونياً لكنه كان يأخذ الأمور بمنتهى البساطة وبشعر دائم الانفراج كأمه إلا أنه لم يكن جذاباً كمعلم مثل آخرين لطالباته التي أصابتهن انهيارات المرحلة فصار منهن من لا تقدر على الفهم والاستيعاب إلا من المعلم ذو (البرفان) الطيب والبنطلون الكذا والشعر هكذا... سبحان الله.

أكبر ألم واجهه في عمله هو طلاب النقل الذين أصيبوا بالفوضى (عن عمد) فصار الفصل مسرحاً للهزل وقلة القيمة، وهو ليس ببلطجي كي يعطيهم على أم رأسهم وليس بـ (دلدول) كي يتلعب الإهانة ومن هنا كانت معاناة الضمير.

تزوج من فردوس زميلته في المدرسة الإعدادية التي عُين بها أول تخرجه وصار لهما الآن فريد وكيلاً للنائب العام الذى كان (نمبر وان) على دفعته في حقوق الزقازيق ولحسن حظه أن أحداً من لجنة الاختيار كان بن

أحد من أصدقاء جده المقربين هذا ما عرفه معالي الوكيل من معالي المستشار فيما بعد.

فريدة هي الثمرة الثانية في شجرة فاروق، طالبة مجتهدة في السنة الثانية في كلية الحقوق أيضاً، وبما أن للشهرة عدوى فللمناصب أيضاً عدواها ومن هنا كان اجتهداها حرصاً منها أن تصير مثل فريد من العاملين في السلك القضائي.

وعلى غرار ابن عمه (أبو البنات) رزق الله فاروق بـ فادي الذي يبلغ عمره تقريباً عام وعلى الرغم من أن والده فؤاد كان مدلاً في الصغر وبدا في شبابه أنه كان هوائي الطبع و (ضاربها صرمة) إلا أنه كان الأوفر حظاً بين أخويه في نيل القسط الأكبر من التعليم، طاهر لم يحصل على الابتدائية وعبدون حصل بالكاد على الشهادة الإعدادية بينما هو حاصل على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) ورغم صدق انطباعات الناس الظاهرية عنه إلا أنه كان كما كانت تصفه خالته الخادمة نظلة (بعيد عنك وعن السامعين أصل عنده فكر) ظناً منها أنه ممسوس أو أن ذلك عيباً لا يجوز أن يلتصق بابن عطا الله وشقيق البهوات.

لم يأخذ فاروق عن فؤاد شيئاً أكثر من كونه (عنده فكر)، أما عن الطيبة فمن فُتنة وأما الضمير فمن امتزاج هدوء البال والثقافة التي نالت منه ونهل منها وصار فاروق رزانة تمشي على الأرض.

يوم أن خيرَه الطبيب عماد طاهر بين الدورين ليختار ويترك الآخر لعبدالله عبدون أبى أن يختار إلا في وجود عبدالله، لحظتها ضمت هويدا شفيتها بغل من كيد النساء فصار لها (بوز) وما إن حضر عبدالله أقسم فاروق أن الاختيار لن يكون إلا له وحده (الكبير كبير والصغير) فاختر عبدالله الدور الأخير ومن تحته دور فاروق.

يوم وداع فاروق وفُتنة لبيت البلد كان كالعزاء القاصر، أدركت ست البنات أن نهايتها قد حانت وأن أجَلَّها قد دنا لكن هذا هو الحال عند الشدائد نتوهم أن الحياة ستتوقف وأن الغيم واقع لا محالة وعلى الناس هنا أن يستعدوا لأنهم سيُبعثون.

لم تقم القيامة ومرت السنون وعاشت ست البنات وصارت الآن تمتلك في جعبة العمر مائة سهم لا تدري هل رمت بهم أم أنها تدخرهم كي يرميها بهم أحد في وقت معلوم.

من هو على شاكلة فُتنة وفي مثل سماتها يهوى الاستقرار ويكره التنقل
 حتماً ستجد في الانتقال للعيش في البرج كرباً وقيداً لكن دفعاً من حولها
 هوّن عليها سراب القادم وبالأخص كَنتها (فردوس)، كم كان ثقيلاً
 وبغيضاً أن تعيش هويدا في برج واحد حتى وإن لم يكن هناك أدنى تعامل
 مع أنثى تدعى فردوس (فردوس... أوووووف) مسكينة هويدا لو تعلم
 أن الفردوس هو أقصى الطموح ومنتهاه لمن هو مثلها على ملة الإسلام
 ناهيك عن أن للفاء سر جمع بين فاروق وفردوس وله سحر قد نال من جميع
 أفراد أسرتهما الصغيرة، لكن هويدا لا تسعى إلى آخره فتدرك الفردوس ولا
 هي بقلب مستقيم فتعلم كيف يكون سحر الفاء !

ومن باب الفطنة وحسن الظن أن ألقى فاروق فكرة الاختيار بين
 الشقتين في ملعب فريد وفريدة لأن الباقي لن يُضاروا في شيء ولن يفرق
 معهم شيء ويبدو أنه كان يعلم مسبقاً النتيجة، فاختارا أن يعيشا في شقة
 وبابا وماما وفادى في شقة أخرى، فنظرت فُتنة سريعاً إلى وجه فريد وقد
 اندفع الجمر من حمرة وجهها واختنقت أحبالها الصوتية (وأنا يا فريد؟)

تعالت ضحكات وكيل النائب العام وأردف: تيته ليها أوضة هنا وأوضة
هناك زي ما تحب وكلنا خدامين شبشب تيته

لم تتماسك السيدة نفسها وارثش أنفها وأزرفت من الدموع سيولاً
والتفوا جميعاً حولها وقبل قدميها معالي الوكيل ورأسها الأستاذ فاروق
واحتضنتها فريدة وأبله فردوس، ثوان وهرولوا إلى الداخل (يالهوي فادى
بيعط).

طالت جلسة ست البنات في (الفراندة)، تناولت الشاي وكوب من
عصير البرتقال الطبيعي بين تمديد وفرد قدميها على الكرسي الآخر وبين
وضعها على الأرض، مرت ساعات العصاري القليلة وأخذت الشمس
تتأهب للرحيل، كانت السيدة حريصة طوال حياتها ألا تراها مُحَمَرة في كبد
السماء لما أشبه ب العقد، كان ذلك يذكرها بمن رحلوا وبما نالته من حظ
سيء في زواجها كما كان يذكرها بانقطاع اختبار النساء الشهري ومن
عجائبها أنه حين كبرت وذهب ما كان يدل على أنها لا زالت أرضاً خصبة
أيام طمئتها وعنائها إلا أنه وفي نفس الأيام من كل شهر كانت تأتيها نفس
الأعراض أو ربما هُييء لها ذلك أو تهيأت هي لذلك، ورغم أنها استتسخت

من ذاك الجبل العفى ورغم أن تلك الملامح كانت سبباً في استعادة عافيتها من بعد الانكسار إلا أن الأنثى بطبيعتها تحن أكثر مما تأن.

وهكذا كلما رأت قرص الشمس الزائل ذكرّها بجروح تُقلّب عليها ما فات من محن.

أتت خديجة لتأخذ بيدها لتناول الغداء، لقد تأخر اليوم ساعتين عن مواعده المألوف حتى لا تصاب بالجوع وهى تحتفل مع الجميع في البرج بعيد ميلادها المائة، كانت ست البنات لا تُفَرِّط في وجبتي الإفطار والغداء كانت تعشق المشويات والفتة والفراخ المحمرة (نص نص) أما الشوربة فكانت تشربها في كوب إلى أن اشترت لها شروق (طقم ماجات معتبر) لأجل عيون تيته.

بينما كانت السيدة مستغرقة في تناول الشوربة وقطع اللحم الطرية (الموزة) فإذا بمذيع المسجد الكبير يعلن وفاة أحد أبناء القرية الذين يعيشون في القاهرة، لقد كان يعمل في سكة حديد مصر ماتت زوجته ولم يرزق الرجل بأولاد ولم يكن له في البلد سوى أخ وحيد من أبيه و كان رجلاً رقيق الحال ولم يكن الأخوان من عائلة كبيرة ولم يمتلكوا مقابر خاصة

أذن للمغرب فغسلت يديها وتوضأت وأدت فرض المغرب وخلدت
إلى سريرها لمجرد الراحة فزادت المخدات إلى ثلاثة واتكأت بظهرها وأمرت
خديجة ألا تدخل عليها ولا تقلق راحتها إلا قبل صلاة العشاء بقليل .
أغلقت خديجة غرفة النوم واستأذنتها في أن تذهب إلى بيتها كي تضع
طعام العشاء لزوجها وأبنائها وحتى ترتدى عباؤها الجديدة التي اشترتها لها
ست البنات في العيد الأخير، لقد كانت خديجة المدعو الوحيد لحضور حفل
عيد ميلاد السيدة في برج عطا الله ذهبت وسكنت ست البنات على سريرها
تستغفر .

- الدوام لله

جلست عروس القرية على ظهر الجمل في (التختروان) والفتيات من
حولها يرقصن ويغنين، ألقت بنظرة من أعلى الجمل ولم تصب عينها إلا من
رأت في أعينهم نار الحسد والغيرة كأشعة صُوبت نحوها فأصابتها بدوار في
عز فرحتها فأمسكت برأسها ولكن السماء أصدرت برقاً ورعداً مما أزعج

الجمال فترنج وصار جامحاً وألقى بست البنات من أعلاه فالتفتها الدكتور
عماد طاهر.

قامت مذعورة من غفوة أصابتها، وعلى حلم ظنته كابوساً لكنها
أدركت في لحظة أن يد ابن أخيها الطيب التقطتها ربما لأنه الوحيد الذى
يمتلك الدواء، وعندما تذكرت أنه طبيب نساء وتوليد انهمرت في
ضحكاتها المكتومة، لكن ما أرّقها تلك (الشقة) التي طالما جاءتها في المنام
وكادت كما تتصور في لحظة أن تقضى عليها فتناولت كوب الماء الذى
يجاور السرير من على الكومودينو .

أحست بها خديجة التي عادت لتوها واطمأنت عليها وأخبرتها أن
الشيخ مروان يطلب لقاءها لأمر هام وعلى عجل، فقامت بحذر وبدلت
ملابسها واتجهت إلى غرفة الاستقبال حيث يجلس مروان على الأنتريه
الأمريكى فقام بسرعة وقبل يدها وأخذ بها إلى الكرسي الذى اعتادت
الجلوس عليه.

مروان حمّاد كان والده (حانوتي) القرية وكان يتقاضى أجراً على هذا
العمل وكانت السيدة منذ ثلاثين عاماً قد أوصت بالألأتمس يدا حماد جثمانها

عند إنزالها إلى القبر لقد كان الرجل حشاشاً بدرجة فاخر، لكن قبل خمس وعشرون عاماً مات الرجل وطال عمر السيدة، كان مروان وقتها في الابتدائية وظلت القرية لسنوات لا يُعرف لها حانوتي لأي شخص من أهل الميت أو المجتهدين كان يلعب هذا الدور، وما إن شبّ مروان وتخرج من كلية أصول الدين وتم تعيينه كإمام وخطيب في المسجد القبلي في البلد حتى اختار بنفسه أن يشارك ويتكفل بتكفين الرجال وتلقى الجثامين من الحياة الدنيا إلى المستقر الأخير، كان لا يتقاضى عن ذلك أجراً وإنما وهب عمله لوجه الله واحتسبه على روح والده الذي كان حماد يعلم بذنوبه وربما تقبل الله منه وتأمل في وجه الكريم أن يخفف عنه ما جنته يده، حتى أن من رأى حماداً وما اقترفه أباه في حياته استغفر له بعد مماته لأجل ابنه مروان.

وولد صالح يدعو له

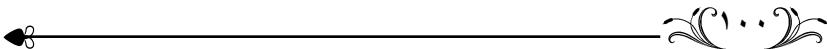
أخبرها الشيخ مروان أن الرجل المتوفى قادم من القاهرة الآن في الطريق، وأن أخاه الوحيد في حيرة لأن العين الوحيدة الخاصة بالرجال في المقبرتين خاصتهم قد دُفن بها أحد أبناء عمه منذ ثلاثة أيام فاستسمحها في أن يُدفن في مقبرة من مقابر الصدقة التي شيدها السيدة:

- اسمها طُرب ربنا يا شيخ مروان

- طُرب ربنا يا ست الحاجة... أستغفر الله العظيم

كانت ست البنات في عام ١٩٧٣ قد أصيبت بحمى خطيرة قالوا أنها كانت شوكية وكادت تعصف بحياتها حتى أن البعض كان يمزح أن فرحة الانتصار في الحرب لم تحتملها السيدة لكنها حين تعافت بعد ثلاثة شهور حرصت على توسعة المقابر الخاصة بأسرة عطا الله وزادتها إلى أربعة عيون للرجال ومثلها للسيدات وبجوارها عينين للرجال ومثلها للنساء على سبيل الصدقة والتقرب لله رب العالمين حتى يُدفن فيها من لم يجد له مأوى بعد موته كانت تسميها (طُرب ربنا) وكم من أناس شيدوا في الدنيا وأحسنوا التشييد وتناسوا أن القبور أولى وأن الآخرة خير وأبقى.

أخرجت سلسلة المفاتيح من (سيالتها) وأعطتها للشيخ مروان وطلبت منه أن يفتح دولاب الفضة ويأتي لها بالعلبة، لقد كانت تضع مفاتيح البوابة التي تضم مقابر العائلة وطُرب ربنا في علبة الذكريات، أخذها مروان ووضعها أمام السيدة فأعطته المفاتيح ولما أراد إرجاع العلبة



إلى الدولار كما كانت نهته وطلبت منه أن يتركها فلها في بقائها غرض
فشكرها ودعا لها بطول العمر والأمد ووافر الصحة، وقام واتجه للتجهيز
لحفر المقبرة في الصباح الباكر لأن موعد الدفن في العاشرة صباحاً.

مدت يدها إلى العلبة وعادت لتمسك بخاتم أبيها الذهبي الذي يصل
وزنه إلى ٣٠ جرام وأغلقت العلبة وأودعتها في دولار فضة في أمان،
ووضعت الخاتم في علبة من القطيفة الكحلي كانت لديها في الدولار
وخرجت إلى (الفراندة) وأحسّت أنها تحتاج إلى نصف فنجان قهوة آخر في
هذا الوقت ربما حتى تصمد أمام سهرة الليلة، أتت خديجة بـ (السبرتايه)
وشردت السيدة قليلاً وهى تقلّب القهوة في الكنكة النحاسية فلقد قررت
أن تتنازل عن خاتم عطا الله لأحد الرجال الثلاثة، كانت تقصد واحداً منهم
بعينه، خشيت أن تموت ويتصارع الرجال حول الخاتم إما بوازع اقتنائه من
أجل المفاخرة أو بدافع الحصول عليه من أجل السيطرة وربما لا لهذا ولا
ذاك فقد يكون ضرباً من كيد النساء.

تنهت فأودعت الكنكة النحاسية على (السبرتايه)، فلما استوى عليها
صبت نصف فنجان (بيشه) وارتوت منه فأُعِيد ترتيب أفكارها فاسترخت
بظهرها إلى الكرسي وأحست بـ (همدان) لا يصل إلى حد الغفوة لكنه مجرد
همدان.

مهما طال بك العمر فأنت على يقين أن النهاية محتومة ومهما كنت
صالحاً تعطى أكثر مما تأخذ سيأتي اليوم الذى تنتظر فيه الحصاد، ومهما
عشت عمراً تطب فيه جرح الآخرين فلا بد أن يأتي اليوم الذى تُعلَى فيه من
ذاتك ربما بمنتهى الأنانية تعويضاً عما أعطيته للآخرين وللزمن.

مائة عام عاشتها ست البنات لم تفكر في نفسها إلا مرة واحدة حينما
اختارت مصطفى علّام ولما خابت خيبتها الأولى قررت وبحسم أن لا تخيب
مرة أخرى، ذاك الشعر الأبيض الذى احتل رأسها تمام الاحتلال منذ أكثر
من ٣٥ عام ظل يذكرها بأنها ملكة متوجة على العرش وأنها كانت الأحق
بسيف عطا الله، ضيق عينيها وملامح أبيها التي نعمت بها كانوا يخبرونها
أنهم رحمة من القدر الذى حماها وأطال في عمرها من بعد إخوانها حتى يكبر

الصغير ويعقل القاصر، ذاك العكاز الأبنوس أعطاها درساً أن القوى إن سقط منه عضو فالله يعوّضه بما يجعله أقرب إلى الكمال.

الكوايس التي طالما طاردها كانت تؤرق صفو حياتها، فالجدار الذي حطم فقرات ظهرها كاد أن ينال من صبرها، ووجه فاطمة في كابوس آخر وهى تقضم فخذها بأسنانها الحادة كان يؤلم فخذها في الحقيقة بعد الاستيقاظ، لكن آخر أحلامها بث فيها أمل وطموح غريب لمن بلغ أرذل العمر، فكونها كانت عروساً أهمها أن الجنة لها بإذن الله وستأخذ حظها ونصيبها كأثني أفضل وأكرم مما نالته في الدنيا، وأن البرق والرعد كانا نذيرا شؤم إلا أن عماد الذى التقطها نذير خير، تعجبت قليلاً لماذا عماد بالتحديد؟ فسّرت ذلك ربما لأنه طيب وربما لأن الدم (عمره ما هيبقى مية).

خديجة وقد ارتدت العبادة الجديدة:

- هنمشي إمتى يا جدتي... جدتي

انتبهت السيدة فرأت العبادة الجديدة فابتسمت:

- الله حلوة قوى العباية يابت

- تسلمي يا جدتي
- بعد صلاة العشا إن شاء الله هتعدّي علينا شروق بعريتها
- يالهوي.. ست شروق بتجري وأنا بخاف أركب معاها
- قهقهت السيدة بهدوء متقطع :
- وهو أنا مش هخاف على نفسي يا بت وأنا لسه شابة وزى القمر
- تعالّت ضحكات خديجة فباغتتها السيدة:
- ضربة في بطنك بتضحكي على إيه
- وأرادت ست البنات أن توقف ضحكاتهن لأنها كانت من ذاك النوع
- من النساء اللاتي إن ضحكن فلا (فرامل هن)، حدثتها عن الأسانسير:
- يا حزني يا أمه
- فكانت القهقهة هذه المرة من نصيب السيدة:
- وهو أنا مش هخاف على نفسي يا هبلّة خدى بإيدي أتوضي
- وأستنى في الأوضة شوية

- حاضر يا جدتي

توضأت السيدة وخلت إلى نفسها في غرفتها وجلست على سجادة الصلاة وبدأت ورد دعاء قبل الصلاة كالذي تتمم به في الفجر، دعت للجميع وعمت بالدعاء الناس جميعاً، ثم استقبلت فرض العشاء فصلّت وحمدت الله حمداً كثيراً.

بدلت ملابسها وارتدت أجمل جلابية سمراء من الحرير، ووضعت من ذاك البرفان الذي أهدها إليها فريد حينما عُين وكيلًا للنائب العام ونادت على خديجة لتأخذ بيدها والعكاز الأبنوس في اليد الأخرى، حتى تستعد لقدم شروق لاصطحابها إلى برج عطا الله حيث الاحتفال، أوصت خديجة بأن تغلق الأبواب جيداً وأنبوبة البوتوجاز..

- كله على سنجة عشرة يا جدتي

ورغم أن صاحبة المائة عام كانت بعقلية تستطيع أن تستوعب تطورات كثيرة إلا أن الموبايل لم يروقها أبداً كانت تكتفى بالتليفون الأرضي الذي تعودت عليه واعتادته منذ أكثر من ٦٠ عام، فطلبت من خديجة أن

تتصل بشروق لتعلم أين هي الآن فأخبرتها أنها في مدخل البلد، لقد كانت خديجة (لبلب) في استخدام الموبايل الـ touch الذى اشترته لها ست البنات، ثم أغلقت خديجة الباب الرئيسي وانتظراها في (الفراندة).. ثلاث دقائق وهلت شروق بكلاكس سيارتها الرينو، كانت شروق (عفريته سواقة) وكلاكس سيارتها كان بحق مزعجاً، نزلت من السيارة وأخذت بيد (تيته) مع خديجة وأركبها السيارة، واتجهت شروق في طريقها إلى البرج.

- البرج جاهز للاحتفال

الطريق من بيت عطا الله في وسط القرية حتى الخروج منها تقريباً يصل إلى ١٥٠٠ م، أصبح اجتيازه يحتاج إلى دقائق أكثر بسبب تزايد الكثافة السكانية وتلاحم المباني التي أصابت القرية المصرية بتخمة فصارت مسخاً فلا هي ظلت على فضفاضة القرى ولا هي تبدو في هيئة المدن.

دست ست البنات يدها في جيبيها ظناً أنها نسيت الخاتم، فتأكد لها

وجوده فحمدت الله بصوت عالي

- (خير يا تيته يا قمر)



- بحمد ربنا يا بنتي بحمدہ
- دایماً یا تیتہ
- تسلمی یا حبیبتي .
- ألا قوليلي یا شوشو العربیة دي بكام یا حبیبتي؟
- بـ ۳۲۰ ألف یا تیتہ
- ضربت خدیجة علی صدرها... یا لهوي یا ست شوشو
- اسکتی یا عیطة
- حاضر یا جدتي
- وأبوکي دفع کام من تمنها؟
- ولا جنیه یا تیتہ أنا جابياها قسط علی ۵ سنين من غیر فوايد ودي
- بقى من مميزات الشغل عندنا...
- ربنا یکفیکی شرها ویديکی خیرها یا حبیبتي
- یارب یا تیتہ یا قمر

كلما سنحت الظروف أن تذهب السيدة خارج البلد كانت تدقق فيما جرى على الأماكن من تغيير، فالقرية التي كانت في الستينيات حدودها بعد بيت عطا الله بـ ٢٠٠ متر امتدت أطرافها لأكثر من ١٥٠٠ متر من جميع الجهات، هنا كانت ساقية مورييس، لم يعد لها أثر وقد حل محلها نقطة الشرطة، أما أبناء عم مورييس وأحفاده فاستوطنوا الإسكندرية، وهنا كانت قراريط علام التي صارت بيتاً فسيحاً لأحد محدثي النعمة يقولون أنه (حرامي آثار قد الدنيا).

ذات يوم بعد طلاقها من علام بستة أشهر تقدم لخطبتها الحاج مصطفى عرفان تاجر كبير من تجار القاهرة تخطى عمره الخمسين، وكادت أن توافق في لحظة ضعف منها. حتى تغادر القرية وتقضى على ما ألم بها من ذكريات سيئة، إلا أنها سرعان ما انتبهت فرفضت وتم القبض على سي الحاج مصطفى بعدها بثلاث سنوات بتهمة قتل راقصة فلقد كان الرجل صاحب مزاج .

في منتصف الطريق كادت شروق أن تصطدم أحد المارة الذي عبر الطريق فجأة لكن الله سلّم (الفرامل الجديد شديد)، كان المار أمامها هو (سعد بلّالة) الذي أنعم الله عليه بذهاب العقل بلا عودة، ولد هكذا وعاش هكذا واستولى إخوته على ميراثه بينما لم يسلم من حسد الناس على الجنة التي سينالها دون حساب.

حينما كانت ست البنات في الستين كان هو شاباً في العشرين كان يأتيها يوماً فيجلس بجوار سور البيت من الداخل بجوار البوابة ويكتفى بكوب الشاي وقطع الجبن كان نهماً في أكل الجبنة الفلاحي ولا يأكل سواها تقريباً، وبمرور السنوات احتجزه أخواه بعد أن تخطى الأربعين (الناس كلت وشنا) وأقل من ستة أشهر واستحوذا على أرضه من أبيه ونصيبه في البيت وعاد إلى الشارع لكنه لم يعد إلى بيت عطا الله.

التفت إلى السيارة وصار وجهه مباشرة في وجه ست البنات فابتسم لها ابتسامة العمر واقترب منها بثقل حركات المسن فربتت على كتفه ومدت يدها في (السيالة) وأخرجت له ٢٠٠ جنيه ورقة واحدة فأطال التبسم في وجهها وانصرف دون أن يمد يده ليأخذها... حكمتك يارب.

عاودت شروق سيرها بالرينو ، وسألت تيته عن (سعد بلالة)
 فأخبرتها وقبل أن ينتهى مشوارها الطويل في البلد شردت تيته قليلاً وهنا
 تيقنت السيدة أن العمر إن زاد عن حده كتم على صدر صاحبه وأصابه
 بضيق لا ينفرج إلا بقاء الله وأن الأرض إن تكاتل البشر عليها وازدحمت
 طرقاتها بالمباني فإنها تضيق بهم ولا ينفرج همها إلا بزوالهم جميعاً حتى يصير
 البناء من جديد (على نضافة).

كانت شروق تعلم مزاج تيته وما يسعدها وقد شاركتها نفس المزاج
 فأدارت فلاشة الأغاني على (ودارت الأيام) فنظرت إليها تيته بابتسامه
 رضى وخديجة تبتهج:

- الله يا ست شوشو الله

في أول الطريق إلى المدينة توجد الخمسين فدان ملك أسرة عطا الله
 ومسجلة قانونياً باسم ست البنات، قطعة على يمين الطريق تصل إلى ٣٨
 فدان والأخرى على اليسار تصل إلى ١٢ فدان تلك المساحة قد زاد ثمنها في
 الأعوام الأخيرة لأنها تقع على طريق رئيسي يربط محافظة الشرقية بالدقهلية،

آخر تقسيم لها كان بـ ٤٥٠ مليون جنيه حاول كثيرون ممن أرادوا غسل أموالهم وتنظيف سمعتهم أن يشترونها وبأي ثمن لكن السيدة ليست في حاجة إلى بيع كما أنها لن تقبل أن تصبح أرضها مسحوق يُنظف به روث البشر من الخائنين والفاصلة قلوبهم.

الطريق إلى المدينة بدا موحشاً هذه المرة منذ آخر مرة مضت عليه السيدة منذ عامين حينما كانت في مشوار ضروري إلى بنك التسليف الزراعي، لم يتغير عما كان عليه منذ عامين لكنها هذه المرة كانت أكثر تدقيقاً فيما حولها وتفصيلاً لما تراه، ظهرت على جانبي الطريق عدة مباني متفرقة وبعض الورش والمصانع الصغيرة ولا يخلو بيت من تلك البيوت غالباً من وجود محلات في الدور الأرضي واقتطعت منه قطعة وحل محلها زاوية صغيرة يبدو أن الأزمات المفتعلة تقوّى من إيمان البشر.

ما رآته أثار بداخلها مشاعر ألّبت عليها سخافة شيخوختها التي طالما أحببتها وأدركت أنها نعمة من الله (التي يحبنا يعيش زينا) لكن في لحظة ألّهب قلبها بسوط قاسى فبدا لها الزمان غير زمانها والأيام ليست بأيامها حاولت إغماض عينيها حتى تسترد عافية بصيرتها وقلبها لكنها أدركت أن

الحقيقة أمامها واضحة على الأقل فيم تبصره عيناها ولكن يبدو أن بيت عطا الله لا زال حصناً حصيناً لها من عثرات الأيام وزلزال التغير الذي أصاب البلاد والعباد بالضربة القاضية.

كانت هويدا إلى جانب السمسرة والسيطرة تجيد فن (العلاقات العامة) خططت جيداً للحفل ورفضت بذوق مصطنع مساعدة فردوس وإيمان بدعوى أنها صاحبة الدعوة والفكرة من الأساس:

- علشان خاطري سيوني أرد جمایل عمتو یا حبیبتي یا عمتو إهىء
إهىء إهىء

أرادت أن تستقبل السيدة العجوز استقبلاً ملكياً فأوقفت اثنتين من الممرضات إحداهما تحمل الورد الأحمر والثانية تحمل البنفسج واصطف طاقم التمريض في مدخل الأسانسير على الجانبين لاستقبال (عمتو) والتصفيق لها تهنئة على بلوغها قرن من العمر.

أما الاحتفال فبالتأكيد في شقة الطبيب عماد فهى أكثر رحابة لأن هويدا قامت بفتح الشقتين على بعضهما وافترشتها بكل ما هو فاخر (مودرن

وستيل)، واستعانت هويدا بمنظمة حفلات ماهرة من أولئك المتاحين على الإنترنت فأبدعت بحق، البالونات المائة التورتة، التي تحمل صورة (عمتو)، المضمار من بعد باب الشقة حتى صالون الاحتفال، صورة ست البنات التي تصل الي ٢.٥ متر × ١.٥ متر بألوانها الزيتية حيث قام برسمها محترف تكلفت نحو ٢٠٠٠٠ جنيه.

... البرج جاهز للاحتفال

استقبلت السيدة العجوز مدخل المدينة، دقائق قليلة ومن المفترض أن يصلوا بعدها إلى البرج لكن الزحام الذى أصاب الشوارع مدّ الدقائق إلى ربع ساعة، الأضواء عالية السيارات كثيرة منها ما يسير أمامهم ومنها من يزعجهم من الخلف ومن هو على الجانبين راكن صف ثان وثالث، ولأن المدينة لها سحر برّاق لا تتخلص منه إلا إذا غادرتها، فقد انبهرت قليلاً مما غافلها مؤقتاً عما آلمها في رحلة المجيء، وصلوا إلى برج عطا الله الذى تزّين في استقبال السيدة.

سارع الثلاثة عماد وعبدالله وفاروق للأخذ بيدها كي تهبط بسلام من

الرينو، أراد عماد أن يمزح :

- أشيلك يا بطة؟ قهقهوا جميعاً

- يوه جتك إيه يا عماد ربنا يسعدك يابني

وببطيء أخذوا بيديها إلى السلم ولما اقتربت من الأسانسير أحاطتها
المرضات بالتصفيق والتهليل وقدمن لها الورود فأحست وكأنها الملكة
فريدة أما هويدا فطبعت على خدى السيدة قبلات سمع الجميع طرقعاتها
حتى أن (الروج) ترك أثراً على خدى العجوز يبدو أنه كان مغشوشاً (مش
براند).

انطلقوا جميعاً في الأسانسير الكبير فارتبكت خديجة وتغيرت ملامح

وجهاها فوخذتها السيدة في كتفها: كلنا في الهوا سوا يا بنت الهبله

فاحمر وجهها خجلاً وقهقهوا جميعاً وصل الأسانسير إلى نهاية رحلة

الصعود وكان باب الشقة مفتوحاً تقف أمامه فردوس وإيمان وسلمى أما

الباقون فهم بصحبة السيدة، عناق الأحبة وقبلات الشوق وأسمى آيات

الترحاب من الجميع في حضرة عمتو، اخترقت المضمار حتى استقرت واستقر الجميع في الصالون وبدأ الاحتفال .

تلفتت السيدة فأحصت الغائبين، سألت عن فاطمة فردت هويدا أن (ماما فاطمة) قد تناولت دواء الأعصاب الذي يهّمّد جسدها ويلقيها على السرير دون وعى وأنها ومن شدة حرصها قد أحكمت إغلاق الباب من الخارج بالمفتاح حتى تأمن (ماما فاطمة) الذئاب البشرية من الخارج فتصبح آمنة مطمئنة.

- ربنا يشفيها لأجل جاه النبي

ولما استفسرت عن غياب فادى فأجابتها فردوس أن طبيب الأنف والأذن منعهم من أن يحضر الولد أفرّاح أو حفلات بها ضوضاء لأنه مصاب بثقب في طبلة الأذن.

أما جويرية فقد كان اليوم هو ميعاد تطعيمها وبعدها تصاب بحالة من (القرفة والزن عمال على بطل) لذلك تركتها إيمان مع والدتها.

دعت لها السيدة بطول العمر والسعادة ولفادي بالصحة والعافية
 وكان من الغائبين عن الحفل ابنا عماد وهويدا (مدحت وأحمد) لكن
 لا داعى للسؤال عنهما فقد كانا خارج البلاد حيث أنه لما يأسست هويدا من
 ابنها اللذان تعثرا في دراسة الطب والهندسة (الخاصة) فما كان منها إلا أن
 أرسلتهما إلى أوكرانيا لإنجاز المهمة لكنها لم تدرك أن (خايب هنا أخيب
 هناك).

التف الجميع حول التورته وتيته جالسة، غنوا لأبو الفصاد احتفالاً
 بذكرى ميلاد السيدة العذراء ثم قاموا بإطفاء تلك الشمعة الوحيدة التي
 انتصف التورته... هووووف .

تناوبوا عليها يقدمون أخلص التهاني وفروض الولاء والطاعة
 والامتنان على ما بذلته من جهد في الحفاظ عليهم وما يملكون من بعد
 آبائهم الثلاثة وجدهم عطا الله محجوب، وتوالت هداياهم بأيدي الزوجات،
 قدمت لها فردوس عكاز جديد يقال أنه أثرى ابتاعته شروق من أحد
 مزادات القاهرة، ثم أهدت لها إيمان ثوباً أسوداً صُمم لأجلها فإيمان تعرف
 قياسها جيداً زد على ذلك أن سعر المتر من هذا القماش يبلغ ١٨٠٠ جنيه.

والختام من ذهب رفعت هويدا حاجبها الأيسر وخطت نحوها في
دلال وطل عنقها من زهو المفاخرة وفتحت علبة تحتوى على سوار من
الذهب المرصع بحبات من الماس:

- اتفضلى يا عمتو يا حبيبتى والله اشترتها بـ ١٥٠٠٠٠ جنيه
والجوهر جى نشف ريقى بس مش خسارة فيكى يا قمر...قلبي يا
ناس

- ربنا يسعدك يا بنتي

إيمان وخزت فردوس في جنبها وكتمن ضحكاتها المستترة أما خديجة
فلا زال فهمها مفتوح من بلاهة المفاجأة.

استقروا وهدأوا وقطعوا التورته وأكلوا وشربوا وتعال الصيحات
وصفقوا جميعاً إلا فريد به الذى اكتفى بالابتسام واحتضان تيته بين حين
 وآخر.

ولأن الغريب مهما طالت رحلته فلا غنى عن عودة يستقر بها وتقرّ بها
 عيناه ولأن الوقت قد طال أكثر من المتوقع ولأن عمتو قد أنهنّ جسدها
 فوجب إذن الرحيل، تسارعوا في طلب أن تبين معهم لكنها أبت بحسم
 فلم يجادل أحد سيف عطا الله فخففوا الطلب إذن وتسابقوا حول من
 يوصلها إلى البلد وهنا أطلق الطبيب يمين طلاق على أنه لن يوصلها أحد
 إلا هو وهويدا:

- مش كدة يا حبيتي

- طبعاً يا حبيبي ... بعد أن (زغرت) له بعينها العسلتين (اللانسيز
 وسنيه).

خارت عزائمهم أمام يمين الطلاق واستأذنوا في الانصراف بعد أن
 وعدهم الطبيب بتوصيلها بعد أن يبدّل ملابسه التي غمرها عرق المحبة
 والإخلاص، لكن السيدة قاطعته وأخبرتهم أنها ستشرب القهوة في شقة
 عبدالله في حضور فاروق وطاهر بعد أن يبدل ملابسه، امثلوا وبادرت
 شروق (أحلى قهوة لعيون تيته).

لا زالت خديجة في حذر واندهاش حتى بعد أن ذهبوا، أمرتها هويدا
أن تنزوي في المطبخ حتى تتحدث مع عمتو في أمر هام .. حاضر يا ست
هويدا.

- خير يا بنتي...

- خير كثير قوى قوى يا عمتو

كانت هويدا قد أقرت بأفضلية الذهاب إلى القاهرة وتحديدًا إلى
التجمع الخامس ونقل نشاط الدكتور كاملاً إلى هناك وقد قررت وأقر معها
الدكتور تشييد مستشفى ضخم في المكان الذي وقع عليه اختيارها ورغم أن
هذا سيكلف كثيراً جداً لكنه سيجنى الأكثر والأكثر، المليون الذي يتحقق
هنا يتحقق أمامه عشرة أو ربما عشرين هناك، هنا لا زالت رائحة الفقراء
تعكر صفو النخبة وربما خشوا من حسدهم وحقدهم، أما هناك فالراية
واحدة يستظلون بها دون فقير يمد يده يسأل أو محتاج اعتاد الذهاب
للمستشفى الميري فيؤرقهم بمُحنه حينما يأتي في الاستقبال ويعجر عن الدفع

وما ينالون سوى السباب واتهامهم بالقسوة وانعدام الضمير وينتهى الأمر بالذهاب إلى قسم الشرطة .. فهم إذن في غنى عن ذلك كله.

كانت بالفعل هويدا (السمسارة) قد اشترت أرضاً في التجمع منذ سنوات تصل لأكثر من ٢٥٠٠ متر وبسعر ممتاز كانت علاقاتها قد امتدت وسط على بعض المسئولون وسكة أبو زيد لا تخلو من المسالك.

العقبة الوحيدة كانت التمويل، وبالطبع جنى الطبيب ملايين وزوجته حصدت الملايين وتخطت حصيلتهما معاً الـ ٥٠ مليون جنيه، لكنها ليست كافية أبداً لتشديد صرح التجمع الصحي العملاق اللذان انتويا إقامته (هويدا كلينيك)، ولأن الأرض التي سيرثها الرجال الثلاثة يتخطى الآن ثمنها الـ ٤٥٠ مليون جنيه فإن نصيب الدكتور لن يقل عن ١٥٠ مليون ومن هنا كان هذا الاحتفال بعيد ميلاد عمتو.

ثارت ضحكات السيدة العجوز واختنقت دموعها فأحست بتلك (الشقة) التي تؤرّق نومها فمدت يدها بصعوبة وارتشفت من كوب الماء لعلها تجد دواء لصبرها الذي طُعن في مقتل.

- إيه رأيك يا عمتو حبييتي ؟

استأذنتهم في الانصراف، فأحست هويدا بأن السيدة تستهزأ بها قالت
فحايلتها للحظات ولما رأتها متمنعة غمرتها بسيل من القبح والتوبيخ بما لم
تشهده منها ولا من غيرها من قبل ولما غمز الشيطان لهويدا غمزة الذروة
اقتربت منها:

- عايزه مننا إيه يا شيخه اللي زيك غار من زمان

ولأنها سمسارة والسمسار مقامر فرغم صبره الطويل كذب يتمهل
للقص على الفريسة إلا أن الخسارة إن كانت فادحة فإنها تحوله إلى كلب
مسعور لا يميز بين طيب أو خبيث، وإن ثار البدن بالنيران فالأيادي تصبح
سوطاً يجلد، امتدت يداها إلى عنق السيدة التي فار وجهها ويد تقاوم
والأخرى و كأنها تؤمن على (السيالة) ولما انتفضت عروق جبهتها انفك
اشتباك حاجبيها واغرورقت عيناها بالدماء، طاهر من على بُعد:

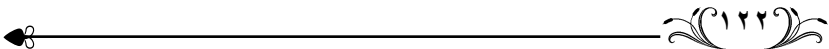
- حرام عليكى يا هويدا.... اخرس أنت

أت خديجة وهى تلقى بصيحات كالتى تطلقها النساء فى المآتم
(صويت):

- الحقيني يا ستي العمارة بترقص

أدرك طاهر الخطر فصاح (زلزال) تركت هويدا رقبة السيدة وبصقت
عليها وفرت، بينما خديجة أنقذت السيدة وقدمت لها الماء وهى تسعل من
تلك الشربة التى تألفها، فرت هويدا و طاهر والجميع فى كل الأدوار
وتسارعوا فى ركوب الأسانسير ومن لم يستطع لم ينتظر وسارع فى الهبوط
على درج السلم لكن ثواني قليلة جداً وصار البرج كومة من أحجار لقد كان
الزلزال بقوة ٦.٥ ريختر أُحيل بعدها صاحب شركة المقاولات التى نفذت
البرج إلى السجن بتهمة الغش حيث أن أحد عشر برجاً مما شيدهم قد
سقطوا مع أول اختبار حقيقي لكن هيهات.... قُضى الأمر.

(ومن أحيائها كمن أحيأ الناس جميعاً) صدق الله العظيم



٢٠٤٥ / ١٠ / ٦ اكتظت قاعة الاحتفالات في الدور الرابع في هذا
المجمع الخيري الضخم، تهامس بعضهم إلى بعض عن البرج الذي انهار في
الزلازل في ٢٠٢٠ ومضت الأيام وصار مجمعاً خيراً ضخماً يشتمل على كافة
المصالح الخدمية التي أُريد به رضى الله على هيئة مساعدة فقراء الله،
ارتسمت ملامح الفرحة على المجمع من الخارج الذي حمل عنوان (مجمع
ست البنات عطا الله الخيري) وعلى باب القاعة كُتب :

حفل زفاف

المهندس فادى فاروق فؤاد عطا الله

و

الدكتورة جويرية عبدالله عبدون عطا الله

تمت بحمد الله وتوفيقه

هاني خليفة